السيميولوجيا ومقاربة الوقائع الاجتماعية بأدوات التحليل النصي

Social Semiology And Approaching The Social Facts Using Textual Analysis Tools

La Semiologie Sociale Et L'approche Des Faits Sociaux Avec Les Outils De L'analyse Textuelle

بلعربي جمال[1] *

تاريخ الإرسال: 2018/07/09 **تاريخ القبول**: 2022/01/25 **تاريخ النشر**: 2022/12/02

ملخص:

نتناول في هذه الورقة موضوع السيميولوجيا الاجتماعية كمجال علمي متعدد الاختصاصات، يجمع بين أدوات البحث السيميائي والوقائع في الأوساط الاجتماعية، بهدف تسليط الضوء على تأثير المنشأ اللساني للسيميائيات على تصورات البحث في مجال السيميولوجيا الاجتماعية، حيث يستعمل الباحثون جهازا مفاهيميا خاصا باللسانيات، في مقاربة الوقائع الاجتماعية. ونناقش إشكالية التقارب الحاصل بين المجالين، حيث تستعمل أدوات المقاربة ذات المنشأ اللساني، لاكتشاف ووصف المصادر السيميائية، من الحياة الاجتماعية، فيحللها ويصفها ويعمل على استثمارها لتوفير معارف تساعد على فهم الوقائع الاجتماعية وفهم التواصل داخل المجتمع. تندرج مناقشتنا في مجال البحث النظري المسمى نقد المناهج وإبستيمولوجيا العلوم. وتتخذ تحليلنا طابعا نظريا تجريديا يتفق مع المستوى الابستيمولوجي للمناقشة. وفي هذا المستوى التجريدي نسعى إلى البرهنة على أن هذا المجال البحثي يحتاج إلى التخلص من الموروث اللساني، الذي لم يعد ارتباطه به مبررا، لكي يتمكن من فتح آفاق البحث السيميولوجي الاجتماعي بشكل أوسع دون حاجة إلى إخضاع موضوع بحثه، ذي الطبيعة غير اللسانية، إلى القوالب اللسانية.

الكلمات المفتاحية : سيميولوجيا اجتماعية؛ سيميائية؛ غلوسيمية؛ علامات؛ أنساق التعبير.

Abstract :

We are interested here in the socio-semiology as a multidisciplinary scientific domain that brings together semiotic research tools and sociological facts. Even if this comparison did not elaborate disciplines or theories, but only approach tools that are specific to semiotics. And we emphasize the influence of the linguistic origin of semiotics on the concepts of socio-semiological research, to conclude that this research must free itself from all linguistic influence thanks to the social character of the sign.

Keywords: socio-semiology; semiotics; glossematics; sign; expression systems.

Résumé :

nous nous intéressons ici à la socio sémiologie en tant que domaine scientifique pluridisciplinaire qui rapproche les outils de recherche sémiotique et les faits sociologiques. Même si ce rapprochement n'a pas élaboré de disciplines ni théories, mais juste des outils d'approche

*المؤلف المراسل

[1] Belarbi Djamel, Scientific and Technical Research Center for the Development of the Arabic Language: Algeria.

spécifiques à la sémiotique. Et nous soulignons l'influence de l'origine linguistique de la sémiotique sur les concepts de la recherche socio sémiologique, pour conclure que ces recherches doivent se libérer de toute influence linguistique à la faveur du caractère social du signe.
Mots clés: Socio sémiologie; sémiotique; glossématique; signe; systèmes d'expression.

مقدمة

نبدأ هذه الورقة بتحديد إطار موضوعنا والمقاربة التي نتناوله من خلالها. فننبه إلى أننا لن نهتم بالتمييز بين السيميولوجيا والسيميائيات[2]، إذ لم يعد مثل هذا النقاش يأتي بأي جديد، خاصة في مثل هذا السياق الإبستيمولوجي المتعلق بمناهج العلوم؛ كما أن تجاهله لن يؤثر على ما نرمي إليه من عرض ومناقشة، طالما أننا نتفق على أننا نبحث في مجال العلامات وأنساقها واستعمالها للتعبير والتواصل داخل المجتمع. غير أننا، ونحن بصدد صياغة أسئلة إشكاليتنا، نلتزم بترتيب الأسس التي تقوم عليها العلاقة الموجودة حاليا، والتي يمكن أن توجد في المستقبل، أو يمكن تصورها موجودة نظريا، بين المقاربة السيميائية كحزمة من الأدوات المنهجية ذات الطبيعة اللغوية بالتعريف، أو على الأقل ذات المنشأ اللساني، من جهة، وبين عناصر الواقعة الاجتماعية، من جهة أخرى، باعتبارها معطيات غير لغوية توجد داخل الأنساق الاجتماعية وتحكمها مجموعة من الإكراهات الاجتماعية. فعلى أي أساس يمكن تصور تلك العلاقة؟ وما الذي يجعل هذا المجال المعرفي والبحثي يقتصر على مواضيع محددة يدور أغلبها حول الخطاب والتواصل بواسطة الصورة والتواصل متعدد الصيغ؟ هل يلعب المنشأ اللساني للسيميائيات دورا معطلا لتوسع مجال دائرة اهتمام هذا المبحث الاجتماعي؟ إننا نطرح إشكالية تبدو موزعة بين مجالين علميين منفصلين: السيميائيات من جهة ووقائع تندرج ضمن موضوع علم الاجتماع من الجهة الأخرى. ولعل أسهل الحلول التوفيقية لمثل هذه المفارقة يجعل إشكاليتنا في الظاهر تقبل الطرح في منطقة التقاطع بين العلمين. غير أننا نرفض هذا الحل، على الأقل لأن هذه المنطقة افتراضية وغير قابلة للتحديد من الناحية العملية. تهدف هذه الورقة إلى تسليط الضوء على النتائج السلبية التي تنجم عن التسليم المبدئي بقابلية الواقعة الاجتماعية للمقاربة بأدوات النص، وهو تسليم ناتج عن نوع من المركزية اللسانية، المرتبطة بالسياق الإبستيمولوجي الذي نشأت خلاله اللسانيات البنيوية في أوروبا، والتأثير الذي مارسته على مختلف العلوم الإنسانية مثل علم النفس مع لاكان، والأنثروبولوجيا مع ليفي ستروس، ونظرية التعلم مع بياجي

[2]- لعله من المفيد أن ننبه هنا إلى أننا نستعمل في مقالنا المصطلحين – المترادفين في تقديرنا- "سيميائيات" و"سيميولوجيا"، ليس بشكل اعتباطي وإنما حسب سياق المناقشة وحسب المراجع والإحالات. فنستعمل المصطلح كما يورده المرجع في النص المقتطف وكذلك في الفكرة التي نعيد صياغتها، ونغير المصطلح في الفقرات الخاصة بتحليلنا حسب السياق العلمي الذي يتضمن الفكرة، فنكتب سيميولوجيا عندما يتعلق الأمر بسياق الفكر الأوروبي في القرن الماضي، ونكتب سيميائيات عندما نتحدث خارج هذا السياق، بصورة عامة، لأنه المصطلح الأكثر استعمالا بين المختصين في هذا المجال. لكننا نضطر أحيانا إلى مجاراة المؤلفين السابقين باللغة العربية والذين يقتصرون على استعمال "سيميولوجيا اجتماعية" في جميع الحالات.

وغيرهم. إن أهمية البحث تكمن في محاولة فتح مجال السيميولوجيا الاجتماعية ليستوعب مصادر جديدة للبحث الاجتماعي لا تخضع للطبيعة النصية واللسانية للمقاربة التي يجري العمل بها إلى حد الآن. فنحن ننبه إلى أن تلك المركزية لم يعد لها ما يبررها بعد أن تراجع الدرس اللساني عن دور الريادة (هيلمسلاف، 2018) الذي اكتسبه أثناء السعي، البنيوي، إلى تطوير مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية، الذي ميز النصف الأول من القرن الماضي.

سوف نتطرق في البداية إل أساسيات البحث السيميولوجي الاجتماعي لنعطي فكرة حول المواضيع التي يهتم بها والمنهجية التي يقارب بها تلك المواضيع. ثم نتطرق إلى الخلفية الاجتماعية للسيميولوجيا والتي تبرر التقارب بين المجالين. ونتطرق بعدها للوجود الطبيعي لمواضيع البحث السيميولوجي في خضم الحياة الاجتماعية. وبعد بعض الأمثلة من صميم السيميولوجيا الاجتماعية نحاول أن نتحرر من المفارقة التي قد تطرحها مقاربة الوقائع الاجتماعية بأدوات تحليل خاصة بالعلامات وأنساق التواصل.

1- أساسيات البحث السيميولوجي الاجتماعي:

لعله من المهم أن نضبط الإطار النظري لموضوعنا فنذكر بأن السيميائيات ما بعد اللسانية، وما بعد البنيوية خاصة، أو على الأقل البنيوية المتأخرة، قد تفتحت على إمكانيات مقاربة مختلف التعابير والملفوظات الثقافية والفنية (Barthes, 1964) فهي تتطلب، وفي الوقت نفسه تعمل على، تطوير أدوات خاصة بها لا يشترط فيها أن تكون ذات أصل لساني. ولعل الأطروحة التي دافع عنها رولان بارت والتي يمكن أن نستنتج منها أن السيميولوجيا – وهو المصطلح الفرنسي المقابل آنذاك لمصطلح السيميائيات المكرس في أمريكا - جزء من اللسانيات وليس العكس (Barthes, 1964)، كما كان يتصور دي سوسير، وكما كان يؤكد هيلمسلاف، قد أثرت بشكل سلبي على تطور المباحث السيميائية. فجعلت بعض الباحثين غير قادرين على تصور الموضوع السيميائي إلا في صورة لسانية متنكرة. وهذا ما نلاحظه لدى الباحثين الذين يستعملون مصطلحات خاصة باللسانيات مثل الصرف والجملة والإسناد .. إلخ، لوصف الظواهر الأنثربولوجية. أو حتى في مجال التعبير الفني حيث يستعمل كريستيان ماتز تعبير "القواعد النحوية للفيلم" ويكرس جهوده للبحث عن الوحدة الصغرى الدالة التي تقوم مقام "الفونيم" اللساني في الفيلم السينمائي. ولعله من المهم هنا أن ننبه إلى أن ذلك ناتج عن قراءة غير وفية قام بها رولان بارت لأطروحة هيلمسلاف (بلعربي، 2019) الذي كان يطمح إلى تأسيس ما يمكن أن يقوم مقام الرياضيات لدى العلوم الإنسانية في إطار ما كان يطلق عليه اسم "الغلوسيمية" (Hjelmslev & Uldall, 1957). بينما كان مشروع بارت يقتصر على السعى إلى بلورة الدرس السيميولوجي بتصور مؤقت يتوقع نهايته قبل أن يتأسس وقبل أن يستنفد جميع إمكانياته التحليلية. وهو ما عملت السيميائيات على تجاوزه خلال تحولها من التركيز على الخصائص البنيوية للغات الطبيعية، مثلما حصل مع حلقة براغ وحلقة كوبنهاغن، إلى التركيز على الأبعاد الأخرى للتواصل والتعبير

البشريين، كالبعد الاجتماعي والبعد الإدراكي. وكذلك بالنسبة للسانيات فقد تحررت من الاتجاه البنيوي "الميكانيكي" الخالص، إذ فرض الاتجاه التداولي والاتجاه الاجتماعي نفسهما على اللسانيات بقوة نظرا لاستحالة تجريد الأداء اللغوي من الطبيعة التواصلية – الاجتماعية بالتعريف – وما تفرضه، ليس فقط على دلالة الملفوظات، بل وعلى بنيتها أيضا، وعلى الآليات التي تشتغل بها تلك البنية.

تهتم السيميائيات الإجتماعية بدراسة الخطابات والأجناس التعبيرية والأسلوب وأنماط الصياغة والانسجام، والانسجام متعدد الصيغ، والتركيب والحوار. أي أنها تدرس الخطاب – ذي الطبيعة اللسانية – في إطاره الاجتماعي أي من حيث تأثير البنيات الاجتماعية على بلورته. وتطرح السؤال حول طبيعة التواصل في السياق الاجتماعي. أما دراسة الأجناس فتهتم بالطريقة التي يتم بها تجسيد ذلك التواصل في السياق الاجتماعي. بحيث لا يقتصر الاهتمام على مكونات الرسالة وإحالاتها بل يتجاوزه إلى التأثيرات التي تحدثها الأجناس التعبيرية في عملية التواصل (كالقول بأن الصورة مستفزة أو مخيفة أو مخادعة .. إلخ فهي أحكام تتشكل داخل السياقات الاجتماعية وليس داخل اللغة). تهتم السيميائيات الاجتماعية بدراسة الآليات التي تتولد بها الدلالة في الصورة (Harrison, 2003). لكن هذه المقاربة لا تتجاوز حدود النص. فالصورة هنا ينظر إليها كمكل للنص وموضح له.

2– الخلفية الاجتماعية للسيميولوجيا:

لقد كان واضحا منذ تعريف ديسوسير للسيميولوجيا (دي سوسير، 2008، ص 31) أن العلامات تمارس وجودها داخل المجتمع. ويتأكد ذلك لأنها في جميع حالاتها تتطلب قارئا على الأقل (بوعزيزي، 2010، ص 15) يتلقى دلالتها ويبلورها. وفي جميع حالاتها أيضا توجد العلامات وتشتغل داخل الأنساق الاجتماعية التي تصنع حياة الإنسان. فبدون الكائن الاجتماعي لا يمكن للعلامات أن تعني شيئا. إن الإنسان هو الذي يمنح معنى للعلامة وهو الذي يقوم بتوليد الدلالة وهو الذي يقوم بفك شفرة الرسالة المتشكلة من العلامات[3]. ومع ذلك فإن الأطاريح البنيوية الساعية إلى التجريد، والتي في مقابل النزعة التجريبية – التي ترى أن العلم يتصف حقا بصفة العلم عندما يتشبه بالعلوم التجريبية مثل الفيزياء والبيولوجيا ويستعمل منهجها وأدواتها في القياس والاختبار .. إلخ – ترى أن العلم المهتم بالعلامات وأنساقها يجب أن يشبه العلوم التجريدية[4] مثل الرياضيات والمنطق، ويستعمل صياغاتها الصورية ولغتها القائمة على الرموز (هيلمسلاف، 2018، ص 52). لكن التطورات الأخيرة للبحوث السيميائية أصبحت تميل إلى الاهتمام بأثر الإنسان ودلالته في مختلف مجالات الحياة

[3]- يذهب بعض الباحثين في مجال السيميائية الإدراكية إلى أن مجرد إدخال تقطيع أو تأطير بسيط لأي تفصيل من الطبيعة الخام، يؤدي إلى تركيز النظر حوله، سوف يمنحه دلالة معينة نظرا للحمولة الاجتماعية التي يتمتع بها ذلك التأطير.

[4]– يمثل هذه النزعة بامتياز باحثو حلقة كوبنهاغن اللسانية ومشروعهم المسمى بالغلوسيمية (بلعربي، 2012).

الاجتماعية. وبدأت دائرة اهتمامات البحث السيميائي تتسع، لتشمل في بداية الأمر مجموعة الفنون والنشاطات الثقافية ذات الوظيفة التعبيرية المعلنة، مثل السينما والمسرح والفن التشكيلي والتصوير الفتوغرافي وأزياء الموضة..إلخ، ثم اتسعت الدائرة لتشمل الهندسة المعمارية والإيقونات الدينية وطريقة استعمال الفضاء المنزلي والمهني وطريقة تنظيمه والدلالات التي ينتجها. إن السيميائيات تهتم أيضا ببنيات العلاقات السياسية في المجتمع ودلالاتها واشتغالها، وبذلك أصبحت تتعامل مع مختلف المؤسسات الاجتماعية على أنها أنساق تعبيرية، أو على الأقل منتوجات ذات حمولة تعبيرية تسندها أنساق اجتماعية يمكن للباحث السيميائي أن يستنطقها ويحللها ويصف آليات اشتغالها.

لم تشهد مجالات نقد العلوم ولا الإبستيمولوجيا ولا علم المناهج أي نقاش جدالي حول البعد الاجتماعي للسيميولوجيا يشبه النقاش الذي شهدته الأوساط العلمية اللسانية بين اللسانيات الاجتماعية[5] واللسانيات البنيوية والذي غلبت عليه النزعة الإقصائية المتطرفة. ولعلنا نستثني من ذلك التيار المتتبع لآثار اللساني الأمريكي هاليداي والذي يفهم السيميائيات الاجتماعية فهما متناظرا مع التصور المكرس حول اللسانيات الاجتماعية. بمعنى إعطاء الأولوية في المقاربة اللسانية للخاصية الاجتماعية التداولية لإنتاج الملفوظات اللسانية وتحديد دلالاتها (Halliday, 1978: 23). ففي إطار السيميولوجيا الاجتماعية، حسب التصور الفرنسي على الأقل، يشتغل الباحثون على أرض واضحة المعالم، هي المنطقة التي تلتقي فيها المقاربة السيميائية مع المصادر السيميائية التي تتيحها الحياة الاجتماعية (Larsen, 2002). ونلاحظ هنا أن التعبير النسقي لم يعد متصورا كمعطى مجرد يتمتع باستقلالية تجريدية وإنما يتصوره العلم كممارسة حيوية لصيقة بالذات المنتجة للتعبير من خلال وجودها في مقامات اجتماعية وفي إطار تفاعلها مع ذوات المجتمع وأفكاره ودالاته ورموزه وقيمه، مع كل ما تتوفر عليه من ديناميكية.

مع ذلك يتميز المبحث السيميائي الاجتماعي بتخصصه في معالجة عدد من المواضيع، في نظر الباحثين الأمريكيين، تجعله لصيقا بالطبيعة النصية – اللسانية – للسيميائيات الأوروبية. من تلك المواضيع الاتصال الجماهيري، الإشهار، التمدرس، الدعاية السياسية.. إلخ. وهو ينظر إلى هذه المجالات ومواضيعها باعتبارها ممارسات خطابية ذات طبيعة نصية في جوهرها حتى وإن كانت أحيانا تظهر في شكل تصوير فوتوغرافي أو سينمائي أو تعبير حركي على المنصة. ففي النهاية تصبح أية ممارسة من حيث أنها موضوع للمقاربة من هذه الزاوية بمثابة نص متنوع الصيغ.

لكننا نعتقد أن مدونات المقاربة السيميائية الاجتماعية يمكن أن تتسع إلى أكثر من المواضيع ذات الطبيعة النصية اللسانية. يمكن أن نتحدث عن الرسومات الجدارية لما قبل التاريخ في المغارات، والتعابير التي تحملها زخرفات الأواني

[5]- نقاش يتزعمه في فرنسا لوي جان كالفي وأتباعه من الباحثين وهم يتصورون أن اللسانيات يجب أن تكون لسانيات اجتماعية، وأن لا معنى للسانيات غير اجتماعية تهتم فقط ببنية اللغة كما لو أنها بنية ميكانيكية تشتغل بصورة آلية تتجاهل كل تفاعل اجتماعي وكل تأثير للإنسان على اللغة اثناء استعمالها.

والمفروشات وغيرها من نقائش تركها إنسان المجتمعات البشرية القديمة قبل التاريخ أو في بدايته. نتعامل معها على أنها تعابير غير لغوية، وجدت قبل ظهور الكتابة أو في بدايتها الأولى، حيث لم تكن تخضع بالضرورة للتقطيع الذي تخضع له الملفوظات اللغوية. إنها مرحلة ما قبل اللغة المسنودة بالكتابة أو على الأقل ما قبل اللغة الواصفة. ولعلها تتيح لنا أن نبحث فيها عن آلياتها الخاصة في توليد الدلالة دون محاولة إلباسها الطبيعة النصية ولا الخصائص اللغوية والخصائص النحوية. وهنا يمكن للسيميائيات الإدراكية أن تلعب دورا هاما في إسناد التعبير إلى الأسس الذهنية – والذهنية الواصفة – والسيكولوجية ثم الأسس الاجتماعية التي تنبني عليها.

3- السيميولوجيا في خضم الحياة الاجتماعية:

إن مقاربة الواقعة الاجتماعية هي الأخرى اقتربت من البحث السيميائي. لأننا نتحدث هنا عن مجال متعدد الاختصاصات، يجمع بين مقاربة الظاهرة الاجتماعية بأدوات البحث الميداني الاستقرائي بامتياز، وبين المقاربة التحليلية التي تشتغل على النصوص والملفوظات، كمدونات نصية، غالبا ما يتم العمل عليها بأدوات تحليلية واستنتاجية. ويمكن أن نعتبر هذه النقلة بمثابة مرور من المجال الاجتماعي البحت إلى المجال الاجتماعي الرمزي (بوعزيزي، 2010، ص 17). بحيث لا تهتم السيميولوجيا الاجتماعية بالواقعة الاجتماعية من حيث هي كذلك، وإنما تهتم بالقيمة النسقية والتعبيرية، أي القيمة الرمزية لما تعكسه تفاصيل تلك الواقعة الاجتماعية. ولكن تلك العلامات المعبرة عن القيمة الرمزية لا توجد خارج الواقعة الاجتماعية، وليست معطيات افتراضية يتصورها الباحث السيميائي بحيث يتوقف وجودها على مقبولية فرضياته البحثية. إن العلامات ذات تأثير وظيفي على الأنساق الاجتماعية وبذلك فهي جزء من الظاهرة الاجتماعية. إن العلامة، وكذلك الرمز، سلطة تتوسط التبادلات الاجتماعية وتتدخل في التصنيف الاجتماعي وما فيه من تراتبيات (بوعزيزي، 2010، ص 18). لننظر على سبيل المثال إلى العلامات التي تعبر عن معتقداتنا الدينية وعقائدياتنا السياسية والفكرية ولننظر إلى الرموز المعبرة عنها كيف تؤثر في بناء علاقاتنا وتوجيهها وتطويرها. أو إلى تصوراتنا المنهجية والعلمية وإلى العلامات التي تعكسها، كيف تؤثر على مواقفنا تجاه الآخرين وتجاه المواضيع والقضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية. لننظر إلى الأثاث الذي نختاره ديكورا لغرفنا ومكاتبنا، وكيف يحدد علاقاتنا مع بقية أفراد الأسرة أو المؤسسة المهنية.

على سبيل المثال يتميز مكتب مدير المؤسسة بمواصفات معينة. فهو يحتل المساحة الأكبر ويأتي في الطابق الأعلى ويسبقه مكتب الأمانة ويتميز بابه عن بقية الأبواب بمواصفات خاصة. كما أن أثاث المكتب وديكوره يكون هو الأغلى والأفضل ترتيبا داخل المؤسسة. ويحتوي على علم الدولة وصورة رئيس الدولة. ويحتل مكانا من الحجرة على مسافة من الباب وتحتل مقاعد الضيوف درجة أقل وتكون بمواصفات متواضعة بالمقارنة معه. كل هذا يكرس رمزية معينة، بصفة عامة. وأحيانا يتعمد المسئول صاحب المكتب توظيف علامات معينة تدل على انتمائه الإثنوغرافي ومعتقده الديني ومواقفه الفكرية.

فهذه العلامات الإضافية ليست خاصة بمدير المؤسسة بصفة عامة وإنما تخص مديرا بعينه. ولذلك فهي تميزه هو شخصيا، دينيا أو عقائديا أو إثنيا أو سياسيا .. إلخ. مثل وضع مصحف على المكتب أو تعليق لوحات ورسومات تعبر عن ذوقه واهتماماته الشخصية. كل هذه التفاصيل تدخل في بناء علاقة الأشخاص داخل المؤسسة، مهنيا وسياسيا واجتماعيا. وتسهم في تحديد وظائفهم وأدوارهم. وتوجه علاقاتهم بالأحداث وطريقة تفاعلهم معها. وذلك من خلال الرسائل التي تبعثها والدلالات التي تولدها.

لعله من المناسب التنبيه هنا إلى أن المقاربة من هذه الزاوية ليست أنثربولوجية لأنها لا تهتم بهندسة العلاقات المذكورة والبنيات التي تحكمها بل تهتم بالقيمة الرمزية والدلالية للعلامات التي تعبر عنها، وتهتم بتأثيرها على الوقائع والظواهر وفي هذه الحالة تأثيرها على السلوك الاجتماعي للمجاعة الاجتماعية داخل المؤسسة وتحديدها لموقعها وطريقتها في تصور واجباتها وحقوقها وطريقة الحفاظ عليها وتسييرها.

ومع ذلك يجب أن نحدد زاوية نظر المقاربة السيميولوجية داخل الإطار الواسع للبحث السيميائي بصورة عامة. فـ"لئن كانت السيميولوجيا ترصد العلامة أينما حلت، في اللغة الصامتة والمسموعة، فإن السيميولوجيا الاجتماعية تقتفي أثر العلامة، وقد خضعت للصرف [المورفولوجيا] بوطأة الاجتماعي عليها، فينساب فيها المعنى بحسب الفاعل."(بوعزيزي، 2010، ص 19) بمعنى أن المقاربة السيميولوجية الخالصة تهتم بالعلامة في حالتها المجردة – الصورية- بينما تهتم السيميولوجيا الاجتماعية بالعلامة الحيوية داخل مقام تشكيلها ثم تداولها ومن خلال تفاعلها داخل الوسط الاجتماعي الذي تحيا فيه وداخل الواقعة الاجتماعية المرتبطة بها.

ليست العلامة، موضوع اهتمام السيميولوجيا الاجتماعية، مجردة عن منبتها الاجتماعي، فهي تتشكل داخل الحياة الاجتماعية وتستمد معناها وقدراتها على التدليل من الأنساق الاجتماعية المحيطة بالإنسان، أي المحيطة بها؛ على الرغم من أن السيميولوجيا لا تفسر العلامة ولا تربطها بسياقها الاجتماعي والتاريخي (بوعزيزي، 2010، ص 23) فهذا ما يقدمه علم الاجتماع للسيميولوجيا في هذه المنطقة المشتركة بين المجالين.

مع ذلك، وهنا أهمية الأطروحة التي تدافع عنها هذه الورقة بالنسبة للبحث الاجتماعي، يمكن أن يشكل البحث السيميائي في هذا المجال مدخلا مهما لفهم الواقعة الاجتماعية وتفسيرها، بما يقدمه من نتائج تتعلق بالأنساق الاجتماعية وليس فقط بأنساق العلامات داخل الحياة الاجتماعية. يمكن لهذا البحث أن يستنطق العناصر المهملة عادة من قبل الباحث الاجتماعي في خضم اهتمامه بضبط الاستبيانات وتدقيقها لتكون مادة للتحليل العلمي المعبر بما يمكن من الصدق عن الجماعات الاجتماعية والظواهر التي تشهدها. فالعلامات داخل المجتمع وفي مختلف جوانب الحياة تشتغل بطريقة تعبر عن القوى المتصارعة في ذلك المجتمع، وعن التحولات التي تشهدها القيم، وعن المقاومة التي تمارسها الظواهر الاجتماعية

أمام محاولات التغيير الناتجة عن الإكراهات الاجتماعية التلقائية أو الناتجة عن السياسات. ونعتقد أن هذا من صميم ما يسعى الباحث في مجال العلوم الاجتماعية إلى معرفته ووصفه وصياغة قوانينه وآلياته.

مما يعني أن المقاربة السيميائية تتجاوز حدود الترف العلمي، بل تكتسي أهمية بالغة في معالجة الظاهرة الاجتماعية. فهي تقدم مقدارا من المعارف حول اشتغال الظاهرة الاجتماعية وتفاعل الذوات معها، وتساعد على تقديم وصف أكثر دقة، وتفسير أكثر اتساقا، مع طبيعة الظاهرة نفسها، خاصة عندما تنبني على العلامات والرموز. بل إنها تتعامل مع السلوك الاجتماعي ومع مختلف الأشياء الموجودة في الوسط الاجتماعي من حيث هي علامات ورموز قابلة للمقاربة السيميائية.

4- السيميولوجيا الاجتماعية:

لا تهتم السيميولوجيا الاجتماعية بالعلامات مثلما قد تكرسه السيميائيات العامة من وجهة نظر مدرسة باريس، بل بطرق استعمال المصادر "السيميائية" لإنتاج أدوات التواصل والأحداث، ولتفسيرها، في سياق وضعيات وممارسات اجتماعية معينة (Leeuwen, 2005, p.xi). وهي تستمد مصادر البحث والتحليل من مختلف طرق التواصل كاللغة والإشارات والصور والموسيقى؛ ولكنها بالإضافة إلى هذه المصادر تعتمد على مصادر أخرى مثل الطعام واللباس وأشياء الحياة اليومية، وكل ما له قيمة معينة في حياتنا مثل طريقتنا في ترتيب الأثاث في المنزل أو الأماكن العمومية كما أشرنا أعلاه، والملصقات ومختلف الخطابات الإشهارية، التجارية، أو الدعائية، السياسية، وتسعى من وراء دراسة مثل هذه المدونات إلى تفسير الدلالة المنتجة من خلال تلك التفاعلات السيميائية المعقدة داخل سيرورتها الاجتماعية.

إننا نناقش هنا سؤالا حول علاقة التلازم غير المبررة، والتي تكرسها أطروحة هاليداي منذ السبعينات، بين السيميائيات الاجتماعية والنص اللغوي على وجه الخصوص. إلى درجة أن هذه السيميائيات تمثل فرعا تابعا للسيميائيات اللسانية. وهي تماثل اللسانيات الاجتماعية عند وليام لابوف. بمعنى أنها اقتصرت على تسليط الضوء على البعد الاجتماعي للممارسة السيميائية، ووجهت أنظار المهتمين بتوليد المعنى إلى الأهمية الأساسية للسياق الاجتماعي وللتداول خلال الموقف الاجتماعي لأية عملية توليد للمعنى. وهذا يعني أن السيميائيات هنا لا تهتم بالأنساق الاجتماعية ولا العلامات التي تتشكل منها بل تهتم بأنساق التواصل اللغوي وما يحل محلها من أنساق بديلة، وباشتغال هذه الأنساق داخل المجتمع.

أما البحث السيميائي البنيوي الأوروبي، وخاصة الذي يسير في خط هيلمسلاف وغريماس، مستعملا المفاهيم الغريماسية التي طورها عن لويس هيلمسلاف، فقد حاول تركيز الاهتمام على مدونات جرت العادة أن يهتم بها علماء الأنثربولوجيا ولكن هذه المرة باستعمال المفاهيم السيميائية. فعلى سبيل المثال عند دراسة التفاعلات السيميائية الاجتماعية نجد الباحثين يسلطون الضوء على التفاعلات المنتجة للمعنى والتي تعتبر عادة مدونة اجتماعية (بين من يملك السلطة وأتباعه، بين المنتجين والمستهلكين، بين الناخبين والمنتخبين.. إلخ) (Ladowski, 2017). فبين أطراف هذه الثنائيات لا توجد علاقة

سلطة فقط أو علاقة تبادل تجاري أو دعاية انتخابية فقط. بل توجد عملية تواصلية تعتمد على رموز وعلامات يتم تشكيلها بطريقة خاصة ويتم استعمالها وفق نسقية معينة من أن تنقل الرسائل والدلالات وتوجهها بين أطراف الثنائيات المذكورة أثناء تفاعلها الاجتماعي.

تهتم السيميولوجيا الاجتماعية بالدرجة الأولى بطريقة الأفراد في استعمال المصادر السيميائية الممكنة داخل المجتمع. وكثيرا ما يتمثل عمل السيميائي على وجه التحديد في اكتشاف تلك المصادر – غير المعروفة من قبل – وإبراز ما يمكن أن يستخرج منها من علامات ودلالات. بمعنى أنه ينتبه إلى المادة المكونة من أشياء الحياة اليومية والتي يمكن أن تكون لديها قابلية التمفصل كمصادر منتجة للدلالة بصورة نسقية، حتى وإن كان التركيز على المصادر السيميائية أكثر منه على الأنساق (Kress, 2010, p. 5). على سبيل المثال كانت أبواب منازل الأثرياء في العهد العثماني ببلاد المغرب العربي تحتوي على ثلاثة مقابض يستعملها من يقصد المنزل للطرق. وأثناء الطرق وعند اختيار المقبض يحدد فئته العمرية وجنسه. فكان المقبضان العلويان أحدهما أقوى من الآخر، بحيث تطرق الزائرة بواسطة المقبض الأضعف، بينما يطرق الطفل بالمقبض الأسفل. وخلف هذا النسق التعبيري البسيط يمكن أن نجد دلالات وإحالات تعبر عن خصوصيات المجتمع. مثل التمظهر الاجتماعي للفوارق الجنسية بين الأفراد في سن معينة، وتحديد المسافات والعلاقات بين الجنسين بل الهندسة الاجتماعية برمتها. وهذا كله يمكن توظيفه في الفن التشكيلي وفي النجارة وفي الكتابة الأدبية والمسرح والسينما للتعبير المباشر وكذلك للإيحاء والإشارة غير المباشرة للبنيات الاجتماعية التي يعكسها.

في هذا الإطار تعمل السيميولوجيا الاجتماعية على استثمار كل السيميائيات الأخرى والبحث عما يمكن أن يكون مشتركا بينها ومعها ويجعلها تدخل في تنسيقات قابلة لإنتاج الوقائع، وليس فقط الدلالة. بمعنى أن العلامة في سياق البحث السيميائي، لا تقتصر على كونها علامة، حتى وإن كانت السيميولوجيا الاجتماعية تنظر إليها كعلامة فحسب، بل إنها تقوم بوظيفة أخرى هي وظيف التفاعل مع الظواهر الاجتماعية.

لقد بدأ البحث من هذه الزاوية، وبصورة جادة وواضحة، منذ الستينات من القرن الماضي مع باحثين مثل رولان بارت وأمبرتو إيكو ويوري لوتمان، وقد غلب التوجه الثقافي والتواصلي على بحوث تلك المرحلة، ولكنه مع ليوين بدأ يتخذ شكل مبحث علمي واضح الموضوع وواضح الهدف.

غير أن البحث السيميائي الاجتماعي بصورة عامة، والمسمى سيميولوجيا اجتماعية، لم يتأسس بعد في إطار اختصاص علمي يمكن أن يرتقي إلى مستوى العلم، أو النظرية العلمية، بل إن الأمر يتعلق هنا بمقاربة منهجية، أي طريقة في البحث والمقاربة، تقدم مجموعة من الأفكار والتصورات يمكن استعمالها في مسار البحث، ولا تقدم أية أجوبة جاهزة. وربما ينطبق هذا الوصف على مختلف البحوث السيميائية ويفسر تركيزها على الجانب المنهجي والتأسيسي أثناء مقاربة مدونة البحث.

بمعنى أن البحث السيميائي من طبيعته أن يشتغل على مستويين معرفيين، فهو بحث حول إشكالية المدونة، وفي الوقت نفسه بحث حول الأدوات العلمية التي تستعمل في التعاطي مع تلك المدونة، والتصورات النظرية التي ترسم الإطار العلمي والمنهجي للبحث.

يعتمد الباحثون في هذا المجال بشكل كبير على تصور هيلمسلاف للسيميائيات، وإن بصورة غير مباشرة، فهم يعتمدون مثلا على هاليداي أو على رولان بارت، في عملية تفكيك المصادر السيميائية واستخراج العلاقات التي تحكمها، ونجد المفاهيم الأساسية لمثل هذه العملية قد استعملها هيلمسلاف وأسس لها وصاغ قواعدها في ما يسمى بالغلوسيمية. وفي هذا الإطار قدم تراتبية للسيميائيات الممكنة جميعها (Hjelmslev, 1975, p. 211)، تستوعب ما يسمى الآن بالسيميولوجيا الاجتماعية، وقد بين أن أي تحليل سيميائي يجب أن يقوم بتقطيع المدونة، أي تفكيكها بالمعنى المكرس حاليا، واستخراج الدوال التي تحكم علاقاتها. وهذا بالضبط ما يقوم به الباحثون حاليا في مجال السيميولوجيا الاجتماعية. بل إنهم يشتغلون على مصادرهم وفق هذا المبدأ، بحيث لا تعتبر المادة قابلة للبحث السيميائي إلا إذا كانت قابلة لمثل هذا التفكيك أو التحليل الغلوسيمي.

حاول أولدال (Hjelmslev & Uldall, 1957) كما سبقت الإشارة، في مقامات أخرى، أن قدم صياغة جبرية مجردة وعامة لمثل هذا التحليل النسقي منذ منتصف القرن الماضي غير أنه لم يجد صدى لدى المجتمع العلمي في مستوى الجرأة التي تحلى بها. كما حاول هيلمسلاف من جهته أن يضبط نوعا من الرياضيات الملائمة لتحليل جميع الأنساق التعبيرية الموجودة والممكنة في كتابه "ملخص نظرية اللغة". لكنه هو الآخر لم يجد صدى في مستوى طموحاته. ومع ذلك فإن مبدأ التحليل النسقي الذي دافع عنه يمثل الآن أساسا منهجيا ضروريا لكل تحليل نسقي يبحث في تشكيل العلامات وتداوليتها.

5- مفارقة تصور المجتمع- النص:

لعله اتضح أن مقاربة الواقعة الاجتماعية، أو المجتمع ككل في بعض الأحيان، بواسطة المفاهيم والتصورات الخاصة باللسانيات ومختلف مجالاتها، ترجع إلى حقبة تميزت فيها البحوث اللسانية بالريادة، وكانت مصدر إلهام لكثير من المجالات المعرفية، في إطار التيارات البنيوية من بداية القرن الماضي إلى منتصفه، مثل الأنثربولوجيا وعلم النفس وعلم النفس التربوي. حيث كانت اللسانيات تعد بأن تقدم النموذج العلمي الأنضج في مجال العلوم الانسانية والاجتماعية، وذلك لقابليتها لأن تكون علما تجريبيا اختباريا، في صورة الفنولوجيا، واللسانيات الإحصائية والصوتيات الفيزيائية والأسلوبية الإحصائية وغيرها. لكن هذا الدور قد تراجع الآن بشكل ملحوظ، وطورت العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية مناهجها وتقنياتها وتصوراتها النظرية بدون مزيد من تأثير اللسانيات. ولذلك فنحن نرى أنه من قبيل الكسل العلمي الإبقاء على علاقة "بين – علمية" لم تعد مبررة علميا. ولذلك علينا أن نتحفظ في قراءة بعض الصيغ الفرضية مثل العبارات التالية: "تبحث سوسيولوجيا النص

عن المجتمع داخل النص في حين تدعو هذه الدراسة (أي السيميولوجيا الاجتماعية) إلى البحث عن النص داخل المجتمع." وهي "تنزع إلى تحقيق نص يمكن أن تنسج خيوطه من معطيات الواقع الاجتماعي" (بوعزيزي، 2010، ص 26). وربما يتوجب علينا أن نأخذ مثل هذا الكلام على محمل المجاز والصورة البيانية للتعبير عن علاقة غير محددة بشكل نهائي بين المجالين المعرفيين. بمعنى أن "النص" الذي يتحدث عنه الكاتب هنا ليس من طبيعة نصية وإنما من طبيعة غير نصية وغير لسانية ولكن يوصف بذلك مجازا فقط.

يتمثل التحرر من هذه التركة التصورية في الانتباه إلى أن العلامات التي تنتجها الحياة الاجتماعية لا تخضع بالضرورة للأنساق اللغوية، أو الأنساق ذات الطبيعة اللغوية بصفة عامة. فهي لا تنتظم وفق خطية النسق اللساني، ولا تشتغل وفق عادات القراءة أو التواصل الكتابي والشفهي التي تكرست لدينا منذ تطوير اللغة الشفهية ثم اختراع الكتابة كميزة إضافية للتواصل الشفوي. كما أن العلامات الاجتماعية غير خاضعة لطبيعة التمفصل الخاص باللغة ولا للبنيات التركيبية اللسالنية، وأية محاولة لمقاربة تلك العلامات بالأدوات اللسانية ستضيق من أفق المقاربة وستحرم الباحث من تطويع بحثه لما يوافق الطبيعة الإدراكية، والإدراكية الواصفة، التي تتخلل تلك العلامات، وتجعله يصادر على طبيعتها وإرغامها على الامتثال لخصوصيات النسق اللساني.

نعتقد أن مثل هذا الكسل العلمي يشكل عقبة معرفية في تأسيس السيميولوجيا الاجتماعية وعقبة منهجية تعطل إبداعية الباحثين في هذا المجال، فـ"رغم ما أنجز إلى حد الآن، فإن المعرفة السيميولوجية ما تزال في مراحلها الأولى، ما دامت مرتبطة في جهازها المفاهيمي بالمعرفة اللسانية، وما لم تتخط بجسارة حدودها اللغوية المكتوبة للتعلق بالمجال الاجتماعي الرمزي" (بوعزيزي، 2010، ص 22).

نعتقد أن مقاربة العلامات وأنساقها داخل الحياة الاجتماعية من هذه الزاوية تتعامل بنسبة أكبر، إن لم تكن بشكل كامل، مع السيميائيات الإيحائية[6] بدلا من السيميائيات التقريرية والأنساق اللسانية. ولا مجال هنا لاستعمال اللغة أو السيميائية بمعنى مجازي، يقصد به أي تعبير مرتجل يمكن أن نجتهد لنلبسه دلالات نفترض أنها قادرة على الانتظام بشكل أو بآخر. إننا نتحدث عن أنساق حقيقية، غير لغوية، قابلة للتحليل وقابلة للتمفصل على محور للاستبدال ومحور نظيمي كأية سيميائية أخرى، يجتهد الباحث في مجال سيميولوجيا العلامات التي ينتجها المجتمع ليكتشف مصادرها ويجردها ويستخرج علاقاتها ويصف كيفية إنتاجها للدلالة في مختلف السياقات والمواقف. وذلك بالاعتماد، في مستوى ما من

[6]- نستعمل هنا مصطلح السيميائية الإيحائية sémiotique connotative حسب تعريف اللساني الدنماركي لويس هيلمسلاف والذي نجده بعد ذلك في صيغة مختصرة عند السيميائي الفرنسي رولان بارت أحد المشتغلين الأوائل على مواضيع السيميولوجيا الاجتماعية، من خلال دراسته للإديولوجيا وأنساق الموضة والتواصل الإشهاري ..إلخ.

التحليل، على العمليات الذهنية التي يفترض أنها تخضع لنسقية ما وهي تتجلى في السلوك البشري الفردي والاجتماعي عامة، وفي تكيفه مع الوسط باستعمال الرموز والعلامات وبمنح الأشياء الطبيعية قيمة رمزية وعلامية وإكسابها معنى.

خاتمة:

يتجاوز البحث في مجال السيميولوجيا الاجتماعية حد اكتشاف المصادر السيميائية والاشتغال عليها، ويهتم كذلك بالسعي إلى تصميم استعمالات جديدة للمعلومات السيميائية المتحصل عليها خلال عمليات البحث، وتصور أشكال جديدة للتواصل، وذلك باستثمار المعرفة الحاصلة من جراء دراسة مختلف طرق إنتاج الدلالة داخل المجتمع ومعرفة كل ما يمكن أن يصبح مصدرا سيميائيا جديدا، أو متجددا. بمعنى أنه يقدم مادة للتدخل على المستوى الاجتماعي لتوجيه عمليات إنتاج الدلالة وإنتاج العلامات واستعمالها. فهو مبحث يسعى لتقديم إضافة علمية جديدة وإبداعية، أي لا تتوقف على بناء استنتاجات من المدونات الملاحظة والمدروسة، بل يقوم بضبط تصورات للأنساق ممكنة الوجود في تلك المدونات. وهذا ما يجعله يكتسي أهمية خاصة. ويجب أن يتحرر البحث في هذا المجال من الأصول اللسانية العرضية التي لم يقترن بها، في رأينا، إلا بفعل المصادفة التاريخية، والمرتبطة بمرحلة ما من تطور أشكال التواصل البشري. وإذا كان يجب أن يستند البحث السيميولوجي الاجتماعي إلى أساس ما فليكن الأساس الإدراكي المتمثل في الوظائف العقلية للفرد والتي تتحكم في آليات إنتاج العلامات واشتغالها، وهي وظائف ذات علاقة باللغة بطبيعة الحال بمعناها العام والمجرد وليس بلغة قوم معينين، لكنها علاقة لا نعتقد أنها تصادر على الطبيعة الاجتماعية للعلامة، بل تصب في نطاقها. ولذلك نعتقد أنه من السلامة المنهجية أن تؤخذ العلامات بكل إمكانياتها الإبداعية لتعبر فعلا عن القدرات الإبداعية للإنسان وعن طبيعته الاجتماعية، دون أن ينقص ذلك من أهميتها كعلامات تقبل الدراسة السيميائية من زوايا أخرى، ولعل من أبرزها الزاوية النسقية الإدراكية المعتمدة على سيميائيات ش. س. بورس كخيار منهجي وعلمي من خيارات عديدة.

لذلك نجد صعوبة في الاقتصار على الجهاز المصطلحي الخاص بالبحوث اللسانية والبحوث المتعلقة بالنصوص المكتوبة، وتطبيقها بصورة ميكانيكية على مجالات حيوية تلعب فيها اللغة الطبيعية، في شكلها الشفوي، دورا هامشيا. إنها مجالات تتعلق بالاجتماع البشري الخاضع للاكراهات الاجتماعية قبل أن يخضع للتقطيع اللغوي وما يرافقه من إسقاطات ذهنية على النشاط الإنساني. بمعنى أن الشكل الذي تبدو عليه الواقعة الاجتماعية يختلف مبدئيا بين تلقيها مباشرة من مجالها الاجتماعي من جهة، وبين تلقيها بعد أن تخضع، من الجهة الأخرى، لمصفاة اللغة الشفهية والكتابية بكل ما تحمله من إكراهات تنظيمية وتقطيعية مفتعلة.

قائمة المراجع

المراجع باللغة العربية

- بلعربي، جمال (2019). "رولان بارت يقرأ هيلمسلاف".الخطاب، جامعة تيزي وزو، المجلد 14 (1)، ص ص. 159-180.
- بلعربي، جمال،(2012). "الأسس الإبستيمولوجية لسيميائيات هيلمسلاف". رسالة دكتوراه غير منشورة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في (اللغة العربية وآدابها). جامعة الجزائر 2، الجزائر.
- بوعزيزي، محسن (2010). السيميولوجيا الاجتماعية. ط 1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- دي سوسير، فردينان (2008). محاضرات في علم اللسان العام. (عبد القادر قنيني، مترجم). ط 1. الدار البيضاء: إفريقيا الشرق.
- هيلمسلاف، لويس (2018). حول مبادئ نظرية اللغة. (جمال بلعربي، مترجم). ط 1. الجزائر: منشورات الاختلاف.

المراجع باللغة الأجنبية

- Badir, Sémir. (2014). Epistémologie sémiotique. La théorie du langage de Hjelmslev. Paris : Hnoré Champion éditeur.
- Barthes, Reland (1964). Eléments de sémiologie. In « Communication », n° 4. Paris : Seuil.
- Calvet, Louis-Jean (1993). La Sociolinguistique (1er ed.). Paris: PUF.
- Greimas, A. J (1976). Sémiotique et science sociale. Paris : Seuil.
- Halliday, M. A. K. (1978). Language as Social Semiotic: the social interpretation of language and meaning. London: Arnold.
- Hinault, Anne. Questions de sémiotique (2002). Paris : PUF.
- Hjelmslev, Louis (1975). Résumé of a theory of language (1st ed.). Copenhagen: Nordisk Sprog- og Kulturforlag.
- Kress, Gunther (2010). Multimodality, a social semiotic approach to contemporary communication (1st ed.). New York: Routledge.
- Landowski, Eric (2017). Interactions (socio) sémiotiques. In « Actes sémiotiques ». n° 120, 2017. Limoges : PULIM
- Larsen, Svend Erik (2002). In « Questions de sémiotique ». Paris : PUF.
- Leeuwen, Theo Van (2005). Introducing social semiotics (1st ed.). London : Routledge.
- Saussure, Ferdinand de- (1968). Cours de linguistique générale. Paris : Payot.
- Uldall, H. J. & Hjelmslev, L. (1957). Outline of glossematics. A study in methodology of the humanities with special reference to linguistics (1st ed.). Copenhagen: Nordisk Sprog-og Kulturforlag.
- Stjernfelt, Frederik (2014). Natural propositions. The actuality of Peirce's Doctrine of Dicisigns. Massachusetts, Boston: Docent Press.
- Broden, Thomas F (2014). La sémiotique greimassienne et la sémiotique peircienne :
- Visées, principes et théories du signe. « Estudos Semioticos », Universidade de Sao Paulo, vol. 10 (2), pp. 1-16. Sao Paulo.
- Harrison, Claire. Visual social semiotics : understanding how still images make meaning. Technical communication, volume 50, number 1, February 2003.